Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Science



جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

استحداث الخليفة معاوية بن أبي سفيان لنظام ولاية العهد وردود الأفعال التي واجهته
(٤١-٦٠ هـ /٦٦١- ٦٨٠م)

بدر بن هلال العلوي
أستاذ مساعد – قسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة السلطان قابوس
alawib@squ.edu.om

خلود بنت سالم باحشوان
مساعد باحث
مركز البحوث الإنسانية
جامعة السلطان قابوس
khalood@squ.edu.om

استحداث الخليفة معاوية بن أبي سفيان لنظام ولاية العهد وردود الأفعال التي واجهته (٤١-٦٠ هـ /٦٦١- ٦٨٠م)

بدر بن هلال العلوي خلود بنت سالم باحشوان

مستخلص:
هدفت الدراسة إلى إبراز قضية سياسية لعبت دورًا كبيرًا في تشكيل نظام الحكم في الدولة الأموية وتمثل ذلك في ظهور نظام (ولاية العهد الوراثية أو الاستخلاف). واتبعت الدراسة المنهج الوصفي التاريخي الذي يقوم على تحليل الروايات والمقارنة بينها، ومن ثم تتبع ردود الأفعال على ذلك النظام المستحدث. وقد خلصت الدراسة إلى نتائج منها: أن نظام ولاية العهد كان أحد أسباب الصراعات الدموية العنيفة والفتن التي تعرضت لها الدولة الإسلامية بل كان سبباً رئيسيًا لسقوط الدولة الأموية في المشرق الإسلامي سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م.

الكلمات الدالة: نظام الحكم، ولاية العهد، ردود الأفعال، صراعات دموية، الدولة الأموية.

The Creation of the System of Heir-Apparent by Mu’awiyah bin Abu Sufian in (680 A.D) and Reactions against it

Dr. Badar bin Hilal AL-Alawi Khalood bint Salim Ba Hashwan

Abstract:
The study highlights the political issue that played a major role in shaping the system of government in the Islamic state. This is the creation of the system of “heir apparent” by Mu’awiyah bin Abu Sufian, the Umayyad Caliph. The study follows a descriptive approach based on historical analysis and comparison of accounts, and then follows the reactions against that system. The findings of the study show that the system of “heir apparent” was one of the causes of bloody conflicts and violent strife experienced by the Islamic State, and was, in fact, a major cause of the fall of the Umayyad State in the East, in 132 AH / 750 AD.

Key Words: : The system of government, Succession, , Bloody conflicts, the Umayyad state.

مقدمة :

تولى معاوية بن أبي سفيان مقاليد الأمور في الدولة الإسلامية سنة ٤١هـ/٦٦١م بعد أن تنازل له الحسن بن علي ـ رضي الله عنه ـ عن الخلافة، وحصل على مبايعة أهل الكوفة؛ لذلك عرف عام ٤١هـ/٦٦١م بعام الجماعة، لأن معاوية نال فيه بيعة جميع الأمصار واجتمع الناس على خليفة واحد (ابن خياط، ١٩٩٥: ١٢٣؛ السيوطي، ٢٠٠٣: ٦٣؛ ماجد، ١٩٩٨: ٢٢). ولكي يوطد الخليفة معاوية أركان دولته اتخذ بعض الخطوات منها: ١. الاعتماد على رجال أكفاء كولاة للأمصار من أمثال: عمرو بن العاص في مصر، والمغيرة بن شعبة في الكوفة، وزياد بن أبيه في البصرة.

٢. القيام بمحاولات عديدة وجهود حثيثة في مجال الفتوحات الإسلامية لاسيما على الجبهتين الغربية والشمالية الغربية.

٣. ولاية العهد لابنه يزيد ليكون خليفته في الحكم، حيث أعلن الخليفة معاوية قرار البيعة ليزيد سنة ٥٦هـ/ ٦٧٦م، ونتيجة لذلك ظهر نظام ولاية العهد (الاستخلاف) في الدولة الإسلامية لأول مرة، ولاقت هذه الخطوة التي أقدم عليها معاوية ردود أفعال تباينت بين مؤيد ومعارض، وفي هذه الدراسة سيتم استعراض ظهور نظام ولاية العهد لأول مرة في الدولة الإسلامية، ومن ثم تتبع ردود الأفعال حيال ذلك القرار السياسي الذي اتخذه الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/ ٦٦١- ٦٨٠م) (طهبوب، ٢٠٠٤: ٨).

أولاً: ظهور نظام ولاية العهد لأول مرة سنة ٥٦ هـ/ ٦٧٦م:

تعد ولاية العهد (نظام التوريث) الذي استحدثه الخليفة معاوية بن أبي سفيان من أكثر الأمور إثارة للجدل في الدولة الإسلامية؛ وذلك لأن مسألة وراثة الحكم لم تكن معروفة في الدولة الإسلامية قبل هذه الخطوة التي اتخذها الخليفة معاوية عندما عهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد، وبذلك يعد معاوية أول خليفة بايع ولده في الإسلام، ويأخذ عليه البعض، بل ينعته بأنه « حول الإمامة إلى مُلكٍ كسرويٍّ والخلافة إلى منصبٍ قيصريٍّ « (الجاحظ، ١٩٨٧: ٢٤١ ؛ العشماوي، ١٩٩٢: ١٣٤ ؛ نوار، ١٩٩٦: ١٠٣؛ شعبان، ٢٠٠٩: ٢٦١).وتشير الروايات التاريخية (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٤؛ الطبري، ٢٠٠٣: ٢٤٧ ؛ ابن الأثير، د. ت: ٥٠١ ؛ السيوطي، ٢٠٠٣: ٢٠١) إلى أن الخليفة معاوية لم يكن وحده صاحب قرار التعيين، بل أن بعض المقربين منه كان له دور في اتخاذه لهذا القرار، وتذكر الروايات التاريخية أن المغيرة بن شعبة الثقفي ـ والي الكوفة من قبل معاوية (٤٢ ـ ٥٠هـ /٦٦٢ ـ ٦٧٠م) ـ هو أول من أشار على الخليفة معاوية بتولية يزيد من بعده، وحقيقة لا نعلم السنة التي أشار فيها المغيرة بن شعبة على الخليفة معاوية بتولية يزيد العهد، لكن الطبري ذكر ذلك في حوادث سنة ٥٦هـ/ ٦٧٦م، ومن هنا نرجح أن يكون ذلك في فترة ولاية المغيرة على الكوفة بين عامي ٤٢هـ/ ٦٦٢م و ٥٠هـ/ ٦٧٠م (الطبري، ٢٠٠٣: ٢٤٧) لكن الخليفة معاوية لم ينفذ هذا القرار إلا سنة ٥٦هـ/ ٦٧٦م (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٤؛ الملاح، ١٩٧٦: ٢٩).

ويبدو أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان أراد ذات مرة عزل المغيرة بن شعبة عن عمل الكوفة وتولية سعيد بن العاص* بدلًا منه وعندما علم المغيرة بذلك قدم الشام على معاوية، وأشار عليه بالعهد من بعده ليزيد، وقد أورد ابن قتيبة * نص المشورة وهو: « يا أمير المؤمنين، قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف، وفي عنقك الموت، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان، فاجعل للناس بعدك عـَلـَمًا يفزعون إليه، واجعل ذلك يزيد ابنك « (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٤).

وقد أورد ابن الأثير نصًا لتلك المشورة فيه قليل من الاختلاف عما أورده ابن قتيبة ولكنه يتفق معه في المضمون، وهو: « يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف، فاعقد له، فإن حدث بك حادث كان كهفًا للناس وخلفًا منك، ولا تُسفك دماء ولا تكون فتنة « وكان المغيرة قد دخل على يزيد قبل أن يذهب إلى معاوية وحدثه عن ولاية العهد، قائلًا له: « إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيًا وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة « (ابن الأثير، د. ت: ٥٠١- ٥٠٣).

وبناءً على ذلك طلب الخليفة معاوية من المغيرة العودة إلى الكوفة وتعهد المغيرة للخليفة أن يأخذ البيعة من أهل الكوفة، وبالفعل عمل المغيرة في بيعة يزيد في الكوفة، حيث استمال بعض أهل الكوفة بالمال وحثهم على الذهاب إلى دمشق لمبايعة يزيد وأرسل معهم أحد أبنائه (الطبري، ٢٠٠٣: ٢٤٧ ؛ عاقل، ١٩٧٥: ٦٩).

* هو أحد رجال بني أمية، وكان من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، ومن الأمراء الولاة الفاتحين، ولاه الخليفة عثمان بن عفان الكوفة ثم المدينة، توفي سنة ٥٩هـ/ ٦٧٩م.

* رغم أن بعض روايات ابن قتيبة مشكوك فيها؛ لكونه لا يعتمد على الطريقة الحديثية (السندية) في توثيق رواياته كالطبري وغيره من المؤرخين الثقات إلا أنه تم الاعتماد عليه في بعض الروايات المفردة التي لم نجدها في مصادر أخرى.

ولا يمكن معرفة مصلحة المغيرة بن شعبة من وراء هذه المشورة التي أدت إلى فتنة ثانية هي أشبه بالفتنة الأولى في الدولة الإسلامية، ولكن من خلال استعراض تاريخ هذه الشخصية يمكن التوصل إلى شيء من ذلك؛ فالمغيرة من ثقيف الطائف التي عادت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورغم ذلك لا يمكن إساءة الظن واتهام المغيرة بن شعبة بأنه يرمي من وراء تلك المشورة إلى شفاء غليله من بني هاشم، وإثارة أضغان جاهلية تتعلق بالعلاقة التاريخية القديمة بين مكة والطائف؛ ذلك لأنه كان من صحابة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشهد معه صلح الحديبية وما بعدها، وشهد فتوح الشام واليمامة، وأصيبت إحدى عينيه يوم اليرموك، وشهد القادسية، وكان سفيرًا لسعد بن أبي وقاص عند رستم؛ لأنه كان من دهاة العرب، وولاه عمر بن الخطاب البصرة ولم يزل عليها، لكنه عزل فيما بعد لأنه شهد عليه بالفاحشة، ثم ولاه الكوفة فلم يزل عليها حتى قتل عمر، ثم ولاه إياها معاوية أيضًا (ابن سعد، ١٩٩٧: ٩٧؛ الأصبهاني، د.ت: ٤٢).

وأغلب الظن أن المغيرة بن شعبة كان يطمح من وراء هذه المشورة إلى أن ينال الحظوة عند الخليفة معاوية أو عند يزيد، فإذا كان المغيرة قد خسر معاوية عندما فكر في عزله وتولية سعيد بن العاص، فإنه على الأقل سيكسب يزيد وسينال لديه حظوة وسيحفظ له هذا الجميل إذا تولى الخلافة يوماً ما.

لكن من خلال النظر من جانب آخر نلاحظ أن المغيرة بن شعبة كان قد اعتزل الفتنة الأولى، ورغم هذا ضمه معاوية إلى صفه، فهو الذي نصح عليًا بتولية معاوية الشام وأخذ البيعة له بدلًا من عزله إذا أراد أن يتفادى حربه، والمغيرة هو الذي أرسله معاوية إلى العراق من أجل استرضاء الحسن بن علي ونجح المغيرة في مهمته، وتولى عمل الكوفة لمعاوية منذ سنة ٤٢هـ/ ٦٦٢م، وإقليم الكوفة ليس بالإقليم الهين في دولة بني أمية، فهو الإقليم المعادي للسلطة الأموية، ومصدر للكثير من القلاقل، ومعروف تاريخيًا أن الكوفة ولاؤها علوي بعكس الشام التي كان ولاؤها أمويًا، ورغم ذلك وضع معاوية الرجل المناسب في المكان المناسب حين اختاره لولاية الكوفة، حيث إنه استطاع أن يضبط عمله، ولم يفتش عن أهواء الناس، وعاملهم على ما يظهر منهم، واستخدم في سبيل ذلك كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لدرجة أن البعض يعده أول من رشا في الإسلام (ابن الأثير، ٢٠٠٣: ١٥٩؛ بيضون، ١٩٧٩: ٢٧).

وفي رأي السيوطي أن « المغيرة بن شعبة ثاني من أفسد الأمة بعد عمرو بن العاص؛ فعمرو أفسد الأمة حين أشار على معاوية برفع المصاحف وأدى ذلك إلى الفتنة الأولى وافتراق الأمة، والمغيرة حين أشار على معاوية ببيعة يزيد»، فنتج عن ذلك الفتنة الثانية (السيوطي، ٢٠٠٣: ٢٠١).

إذا تركنا دور المغيرة بن شعبة جانبًا يمكن ملاحظة أن معاوية ورّث ابنه الخلافة؛ لأنه في الظاهر كما زعم هو وبعض شيعته كان خائفًا من الفتنة وافتراق الأمة من بعده، وأغلب الظن أن معاوية كان أمويًا صرفًا عندما فكر في تولية العهد ليزيد من بعده؛ وذلك لأن معاوية ـ وهو الذي يعد أحد دهاة العرب في الجاهلية والإسلام ـ ما كان يجدر به أن يولي العهد من بعده أحداً من خارج الأسرة الأموية، وهو الذي صارع الخليفة علي بن أبي طالب فترة من الزمن من أجل الوصول للسلطة (فوزي، ٢٠٠٩: ٩٠).

وبالمقابل نجد أن البعض يورد أن يزيد بن معاوية نفسه هو صاحب فكرة التعيين، ويذكر أن يزيدَ أراد أن يختبر مدى تأثير مثل هذه الفكرة على رجالات بني أمية عند سماعهم لها، ولذلك طلب يزيد من الشاعر مسكين الدارمي (ابن قتيبة، د.ت: ٥٤٤؛ ابن عساكر، ٢٠٠٤: ٣٩) ـ وهو أحد شعراء العراق الذين قدموا إلى البلاط الأموي وكان يزيد يؤثره ويصله ـ أن يتحدث بهذه الفكرة في مجلس معاوية، فأنشد مسكين في مجلس معاوية أبياتًا منها:

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنـــي خلفـــاء الله مهـــلًا فإنما ... يبوئها الرحمـن حيث يريد
إذا المنبر الغربـي خــــلاه ربه ... فــإن أمير المؤمنين يزيدُ

(العقيلي، ١٩٨٥: ٣٩٣؛ الصلابي، ٢٠٠٦: ٥٢١)

وكانت للأبيات التي « عرض فيها مسكين الدارمي فكرة البيعة ليزيد أهمية، حيث وضعت بني أمية ـ لا سيما المعارضين منهم ـ في موقف لم يستطيعوا فيه الاعتراض على البيعة فـــي مجلس معاوية، وبذلك اطمــأن معــاوية علــى موقف أسرته مــن البيعة » (جاسم، ٢٠٠٥: ٦٥). وبالمقابل هناك وجهات نظر معارضة لفكرة البيعة، والدليل على ذلك ما قاله أحد الشعراء في هجاء معاوية (البلاذري، ١٩٩٦: ٦٤):

فَهَبْها أمةً هلكت ضياعًا ... يزيد يَسوسُها وأبو يزيد

ومما سبق يتبين أن دور المغيرة بن شعبة ليس إلا عاملًا مساعدًا لاستخلاف معاوية ليزيد من بعده، وذلك لأن معاويةكان قد أعد يزيد إعدادًا جيدًا * وأهتم بتعليمه وتربيته وتثقيفه، حتى إن معاوية كان قد سمح ليزيد بالإقامة مع أمه ميسون وقومها بني كلب بالبادية ليتعلم منهم الفصاحة

* لم يكن يزيد أكبر أبناء معاوية فقد كان لمعاوية ابن أكبر منه اسمه عبدالرحمن وكان يكنى به، وربما كان السبب في اهتمام معاوية بيزيد لتوليته العهد دون أخيه هو أن عبدالرحمن ابن أم ولد تسمى فاختة، وكانت مسألة عروبة الدم من كلا الأبوين في ذلك الوقت لا تزال أمرًا ضروريًا لمن يتولى الخلافة، أو لأن عبدالرحمن مات صغيرًا.

(البلاذري، ١٩٩٦: ٢٩٥؛ القلقشندي، ١٩٦٤: ١١٦؛ خفاجي، ١٩٨٩: ١٤؛ شاكر، ٢٠٠٠: ١٠٧)

وكان معاوية يهيئ يزيد لمهمة قيادة الدولة من بعده من خلال إرساله في بعض الحملات العسكرية كما هو الحال في حصار القسطنطينية الأول سنة ٤٩هـ/٦٦٩م؛ إذ أرسل معاوية ابنه مع عدد من أبناء الصحابة مثل: عبدالله بن عمر بن الخطاب، عبدالله بن عباس، وعبدالله بن الزبير، وأبي أيوب الأنصاري. وذاع صيت يزيد في خلافة أبيه؛ إذ أنه كان مشهورًا بـ (فتى العرب)، ويوصف بأنه « من فتيان قريش الذين ينتفع بهم « (البلاذري، ١٩٩٦: ٢٩٩ ؛ ماجد، ١٩٩٨: ٥٧ ؛ فوزي، ٢٠٠٩: ٩٠).

مقابل ذلك نجد الكثير من الروايات المشكوك فيها لأنها لا تتماشى مع طبيعة ذلك العصر الذي كان قريب عهد بالإسلام التي تشير إلى مجون يزيد بن معاوية واستهتاره، فيوصف بأنه « أول من أظهر شرب الشراب، والاستهتار بالغناء والصيد، واتخاذ القيان والغلمان، والتفكه (المنادمة والفكاهة) بما يضحك منه المترفون من القرود والمعاقرة بالكلاب والديكة « (البلاذري، ١٩٩٦: ٢٩٩). وكان « أول من سن الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنين، وأظهر الفتك (الجرأة والمجاهرة بالخطأ) وشرب الخمر، وكان ينادم عليها سرجون النصراني مــولاه والأخطــل « (المسعودي، ١٩٨٨: ٣١٩).

وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية رأي في يزيد بن معاوية؛ إذ أنه ينفي عنه ما وصفه به بعض المؤرخين من الكفر والخلاعة، فيقول: « ومن قال أيضًا إنه كان كافرًا، وإن أباه معاوية كان كافرًا، فهو أيضًا كاذبٌ مفترٍ « وكذلك لم يرفع ابن تيمية يزيد إلى مرتبة الصحابة والخلفاء الراشدين، فقال: « ومن قال إن يزيد هذا كان من الصحابة فهو كاذب مفترٍ... ومن جعله من الخلفاء الراشدين المهديين فهو أيضًا ضالٌ مبتدع كاذب « (ابن تيمية، ١٩٧٦: ١٥)

ومن خلال قول ابن تيمية يمكن القول إن ابن تيمية أنصف يزيد بن معاوية نسبيًا؛ إذ أنه لم يرفعه إلى مرتبة أعلى مما كان عليه كشاب عاش في فترة فتنة واضطرابات في الدولة الإسلامية، ولا سيما أنه رأى كيف وصل أبوه إلى السلطة، وتعلم منه الأساليب التي يستطيع من خلالها التمسك بحقه في الخلافة فيما بعد، إضافة إلى أن ابن تيمية لم يتهم يزيد بالخروج عن الدين والكفر.

نتيجة لهذا التضارب في الروايات التاريخية التي تصور لنا شخصية يزيد بن معاوية؛ يرى محمد خريسات أن هذا الاختلاف حول شخصية يزيد الأول بن معاوية (ت ٦٤هـ/ ٦٨٣م) وجد بسبب تشابه اسمه واسم يزيد الثاني بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ/ ٧٢٣م)، وبذلك حصل هذا التداخل في وصف شخصية يزيد بن معاوية، فألصقت الكثير من الأعمال التي نسبت إلى يزيد بن عبدالملك بيزيد بن معاوية (خريسات، ٢٠٠٥: ١٢٩).

والأرجح أن يكون معاوية اتخذ من مشورة المغيرة بن شعبة ذريعة لكي لا يظهر بمظهر المتخذ لقرار التعيين، لأنه كان متخوفًا من نفرة الناس (الطبري، ٢٠٠٣: ٢٤٨) ولكثرة المرشحين المناسبين للخلافة بين الصحابة والتابعين حتى البيت الأموي نفسه، ولذلك كتب معاوية إلى عماله بوصف يزيد، وربما كان ذلك حتى يقضي على دعوى الناس في وصف يزيد بالخلاعة وشرب الخمر (ماجد، ١٩٩٨: ٥٨).

وقد أراد الخليفة معاوية أن يسير على مبدأ الشورى ـ ولو ظاهرياً ـ في مسألة اختياره لابنه ليكون ولياً للعهد؛ وذلك لأنه كان متخوفاً من ردود الأفعال، فاستشار بعض الرجال مثل زياد بن أبيه الذي كان قد ألحقه بنسبه وولاه البصرة، وضم إليه سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م الكوفة بعد وفاة المغيرة بن شعبة والِ الكوفة، فكان يقيم ستة أشهر في الكوفة وستة أشهر في البصرة حتى وفاته سنة ٥٣هـ/٦٧٣م (ابن خياط، ١٩٩٥: ١٢٨؛ السيد، ٢٠٠٢: ٣٧).

كتب الخليفة معاوية إلى زياد يستشيره فيما عزم عليه، فوافق زياد معاوية في قراره بعد أن استشار سادات القبائل، فتحدث زياد إلى عبيد بن كعب النميري * وقال له: « ... إن أمير المؤمنين كتب إلي يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم ويستشيرني، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسلة ودهاء مع ما قد أولع به من الصيد، فَالْقَ أمير المؤمنين مؤديًا عني فأخبره عن فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر، فأقْمَنُ أن يتم لك ما تريد، ولا تعجل فإن دركًا في تأخير خير من تعجيل عاقبته الفوت « (الطبري، ٢٠٠٣: ٢٤٨؛ ابن عساكر، ٢٠٠١: ١٥٤).

وبالفعل وجه زياد بن أبيه عبيدًا إلى دمشق للاجتماع بيزيد سرًا ودعوته إلى ترك ما يؤخذ عليه من لهو ومجون، وكتب زياد إلى معاوية يدعوه إلى التمهل وعدم استعجال الأمر، فقبل معاوية نصيحة زياد، وفي نفس الوقت حاول يزيد أن يكف عن كثير مما كان يصنع، وعاد عبيد إلى البصرة، فكافأه زياد وأقطعه أرضًا في العراق. ويبدو أن معاوية عمل بنصيحة زياد ولذلك نراه لم يعلن البيعة ليزيد إلا بعد ثلاث سنوات من وفاة زياد سنة ٥٦هـ/ ٦٧٦م (الطبري، ٢٠٠٣: ٢٤٨؛ ابن الأثير، د.

* أحد رجال القبائل القيسية في العراق.

ت: ٥٠٥؛ عاقل، ١٩٧٥: ٩٤).

ورغم ذلك لا يمكن الجزم بأن سنة إعلان البيعة هي سنة ٥٦هـ/ ٦٧٦م؛ وذلك لأن المصادر اختلفت في السنة التي أعلن فيها معاوية قرار البيعة ليزيد بولاية العهد، كالتالي (الصلابي، ٢٠٠٦: ٥٢٩):

- ذكر ابن قتيبة، والسيوطي، أن ذلك كان سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٩٣؛ السيوطي، ٢٠٠٣: ١٩٣).

- ذكر خليفة بن خياط، والذهبي، أن ذلك كان سنة ٥١هـ/ ٦٧١م (ابن خياط، ١٩٩٥: ١٣١؛ الذهبي، ١٩٨٩: ١٤٧).

- ذكر ابن عبد ربه، أنه كان سنة ٥٥هـ/ ٦٧٤م (ابن عبد ربه، ٢٠٠٥: ١١١).

- ذكر الطبري، وابن الأثير، وابن كثير، أن ذلك كان سنة ٥٦هـ/ ٦٧٦م (الطبري، ٢٠٠٣: ١٤٧؛ ابن الأثير، د. ت: ٥٠١؛ ابن كثير، ٢٠٠٦: ٧٩).

ومن هنا فالأرجح أن تكون سنة إعلان البيعة بشكل نهائي هي ٥٦هـ/ ٦٧٦م (Muir, 1984: 315)، وبالمقابل استبعاد كل من سنة ٥٠هـ/٦٧٠م ، و٥١هـ/ ٦٧١م و٥٥هـ/ ٦٧٥م، وذلك للأسباب التالية:

- أن سنة ٥١هـ/ ٦٧١م هي سنة وفاة الحسن بن علي* (السيوطي، ٢٠٠٣: ١٨٧؛ ابن خلكان، ١٩٩٨: ٥٣)، وبالتالي فإن أغلب الظن أن معاوية الداهية ما كان ليتخذ هذا القرار ويعلنه أمام الناس بعد فترة قصيرة من وفاة الحسن. وكذلك كان مقتل حجر بن عدي* في هذه السنة (ابن خياط، ١٩٩٥: ١٣١؛ ابن كثير، ٢٠٠٦: ٥٠؛ الزركلي، ١٩٨٦: ١٦٩) وهذا أيضاً يجعلنا نستبعد هذا الرأي؛ لأن في إعلان قرار كهذا إثارة لشيعة علي وآل البيت.

- أن زياد بن أبيه لم يكن قد توفى في تلك السنة، وكان قد أشار على معاوية بعدم الاستعجال في اتخاذ قراره.

- إن إعلان القرار كان في فترة ولاية مروان بن الحكم على الحجاز، والمعلوم أن مروان تولى ولاية الحجاز مرتين الأولى من سنة ٤٢هـ/ ٦٦٢م إلى ٤٩هـ/ ٦٦٩م، والثانية من ٥٤هـ/ ٦٧٣م إلى ٥٧هـ/ ٦٧٧م وبالتالي هذا يؤكد استبعاد سنتي ٥٠هـ/ ٦٧٠م، و٥١هـ/ ٦٧١م (ابن سعد، ١٩٩٧: ٢٥؛ الصلابي، ٢٠٠٦: ٥٣٠؛ العقيلي، ١٩٩٣: ١٤؛ عبدالعال، ٢٠٠٠: ٤٥؛ The Encyclopaedia of Islam, 1999: 621).

- أما فيما يتعلق بسنة ٥٥هـ/ ٦٧٥م، فمن الأرجح أن تكون أوردت بسبب تداخل بعض أحداثها مع أحداث ٥٦هـ/ ٦٧٦م، كما هو الحال بين أي عامين متتاليين.

مما سبق نرجح أن يكون هذا الاختلاف وجد بسبب الأحداث التي حدثت في كل سنة من السنوات السابقة، والتي تخص الإجراءات التي اتخذها الخليفة معاوية من أجل التهيئة للإعلان النهائي لقرار ولاية العهد ليزيد، ولذلك فمن الأرجح أن تكون سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م هي سنة اجتماع الوفود عند معاوية في الشام، وذلك لأن خطب رؤساء القبائل المجتمعين تدلنا على أن الحسن ما يزال على قيد الحياة، وكما هو معلوم توفي الحسن سنة ٥١هـ/ ٦٧١م. والظن أن سنة ٥٦هـ/ ٦٧٦م هي السنة التي تم فيها الإعلان النهائي لقرار تولية يزيد العهد، في حين أن السنوات التي ذكرت آنفًا، ربما تكون تمت فيها مشاورات بشأن هذا القرار.

وفي هذا المقام لابد لنا من أن نقارن بين شخصية كلٍّ من علي ومعاوية في مسألة الاستخلاف، ذلك أن علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ قتل في ١٧ من رمضان سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠م ولم يوصِ لأحد، بل حين سئل عن الحسن وبيعته أجاب " لا آمركم ولا أنهاكم وأنتم بأموركم أبصر " (الطبري، ٢٠٠٣: ١٥٧؛ ابن الأثير، د. ت: ٣٩١؛ المسعودي، ١٩٨٨: ٤٢٥؛ فوزي، ٢٠٠٩: ٨٧) وهذا ما لا نجده في شخصية معاوية بن أبي سفيان الذي جعلها وراثية في أهل بيته حين استخلف ابنه يزيد وهو لا يزال على قيد الحياة، رغم أن علي بن أبي طالب ابن عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وربما كان أحد أصحاب الحق في الخلافة إذا لم تخرج من أهل بيت الرسول.

ثانياً: ردود الأفعال على إعلان معاوية قرار تولية العهد ليزيد:

عندما أعلن الخليفة معاوية بن أبي سفيان قرار البيعة ليزيد بولاية العهد في بلاد الشام، لم يلقَ معارضة من قبل أهل الشام لقرار البيعة، فقد عقد اجتماعًا في دمشق حضره بعض رجال بني أمية بالإضافة إلى شيوخ القبائل العربية في بلاد الشام من أمثال: الضحاك بن قيس الفهري، وثور بن معن السلمي، وعبدالله بن عصام الأشعري، وعبدالله بن مسعدة الفزاري، وعبدالرحمن بن عثمان الثقفي، وحسان بن مالك بن بحدل الكلبي، كما حضر محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري في وفد من أهل المدينة المنورة، والأحنف بن قيس التميمي، والجون بن قتادة العبشمي، وجارية بن قدامة السعدي في وفد

* تشير بعض المصادر أنه توفي سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م.
* حجر بن عدي الكندي صحابي من أنصار علي، شهد معه وقعتي الجمل وصفين، خرج على معاوية فقتله سنة ٥١هـ/ ٦٧١ في موقعة مرج عذراء في إحدى قرى دمشق.

من أهل البصرة (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٥؛ البلاذري، ١٩٩٦: ١٠١).

وكان هذا الاجتماع أشبه بمكان للمشاورة، والبيعة الخاصة لأن معاوية عرض قضيته وكل المجتمعين وافقوا معاوية على قرار البيعة عدا الأحنف بن قيس التميمي الذي دعا معاوية إلى مراعاة مصلحة المسلمين، والأجدر بنا هنا استعراض ما قاله كل هؤلاء الرجال، فيما يلي:

أ- الضحاك بن قيس الفهري*: كان مما قاله الضحاك بن قيس: " ... وقد رأينا من دعة يزيد بن أمير المؤمنين، وحسن مذهبه، وقصد سيرته... مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين، والشبه بأمير المؤمنين في عقله وسياسته وشيمه المرضية، ما دعانا إلى الرضا به في أمورنا، والقنوع به في الولاية علينا. فليوله أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عهده، وليجعله لنا ملجأ ومفزءًا بعده. نأوي إليه إن كان كون (حدث حادث) فإنه ليس أحد أحق بها منه..." (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٥؛ ابن الأثير، د. ت: ٥٠٨).

ب ـ عبدالرحمن بن عثمان الثقفي*: قام عبدالرحمن بن عثمان وأبدى رأيه ـ وهو لا يختلف كثيرًا عن رأي الضحاك بن قيس ـ قائلًا: "... ويزيد بن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته، وبلونا علانيته، ورضينا ولايته، وزادنا ذلك انبساطًا، وبه اغتباطًا، ما منحه الله من الشبه بأمير المؤمنين والمحبة في المسلمين، فاعزم على ذلك، ولا تضق به ذرعًا، فالله تعالى يقيم به الأود (الاعوجاج)، ويردع به الألد (العدو الشديد الخصومة)، وتؤمن به السبل، ويجمع به الشمل، ويعظم به الأجر، ويحسن به الذخر" (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٦).

ج ـ ثور بن معن السلمي*: قام ثور السلمي، مؤيدًا قرار البيعة ليزيد، وكان مما قاله: "... ويزيد بن أمير المؤمنين أقدمنا شرفًا ... وقد دعانا إلى الرضا به والقنوع بولايته، والحرص عليه والاختيار له، ما قد عرفنا من صدق لسانه ووفائه، وحسن بلائه، فاجعله لنا بعدك خلفًا، فإنه أوسعنا كنفًا، وأقدمنا سلفًا، وهو رتق لما فتق، وزمام لما شعب، ونكال لمن فارق ونافق، وسلم لمن واظب وحافظ للحق، أسأل الله لأمير المؤمنين أفضل البقاء والسعادة والخيرة فيما أراد، والتوطن في البلاد، وصلاح أمر جميع العباد " (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٦).

د ـ عبدالله بن عصام الأشعري*: وكان مما قال: "... وأنت يا أمير المؤمنين مسؤول عن رعيتك، ومأخوذ بولايتك، وأنت أنظر للجماعة، وأعلى عينًا بحسن الرأي لأهل الطاعة، وقد هديت ليزيد في أكمل الأمور، وأفضلها رأيًا، وأجمعها رضا، فاقطع بيزيد قالة الكلام، ونخوة المبطل، وشغب المنافق، واكبت به الباذخ المعادي، فإن ذلك ألمّ للشعث... فاعزم على ذلك ولا تترامى (تترامَ) بك الظنون " (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٧).

هـ ـ عبدالله بن مسعدة الفزاري*: "... ويزيد ابن أمير المؤمنين أحسن الناس برعيتك رأفةً، وأحقهم بالخلافة بعدك، قد ساس الأمور، وأحكمته الدهور، ليس بالصغير الفقيه ولا بالكبير السفيه... وأشد الناس في العدو نكاية، وأحسنهم صنعًا في الولاية، وأنت أغنى بأمرك، وأحفظ لوصيتك، وأحرز لنفسك..." (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٧).

و- الأحنف بن قيس التميمي*: "...ويزيد ابن أمير المؤمنين نعم الخلف، وقد حلبت الدهر أشطره يا أمير المؤمنين، فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك، ثم اعص أمر من يأمرك، لا يغررك من يشير عليك، ولا ينظر لك وأنت أنظر للجماعة، وأعلم باستقامة الطاعة، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حيًّا " (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٨؛ ابن الأثير، د. ت: ٥٠٨).

ويبدو أن كلام الأحنف بن قيس لم يعجب بعض الحاضرين ومنهم الضحاك بن قيس، وهذا دليل على أن الضحاك بن قيس وبعض الحاضرين كانوا يؤيدون معاوية تأييدًا شديدًا في قراره هذا، ويدل على مدى تأييد الضحاك بن قيس لقرار البيعة الرد اللاذع الذي رد به على الأحنف بن قيس: «... إن أهل النفاق من أهل العراق، مروءتهم في أنفسهم الشقاق، وألفتهم في دينهم الفراق، يرون الحق على أهوائهم، كأنما ينظرون بأقفائهم، اختالوا جهلًا وبطرًا، لا يرقبون من الله راقبة، ولا يخافون وبال عاقبة، اتخذوا إبليس لهم ربًّا، واتخذهم إبليس حزباً، فمن يقاربوه لا يسروه، ومن يفارقوه لا يضروه، فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نحورهم، وكلامهم في صدورهم، ما للحسن وذوي الحسن في سلطان الله الذي استخلف به معاوية في أرضه؟ هيهات لا تورث الخلافة عن كلالة، ويحجب غير الذكر العصبة، فوطنوا أنفسكم يا أهل العراق على المناصحة

* زعيم قبائل قيس عيلان، ومن أنصار معاوية، وكان ممن آزر عبدالله بن الزبير، قتل بمرج راهط سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م.

* في تاريخ دمشق هو ابن أم الحكم بنت أبي سفيان أخت معاوية، ولاه معاوية الكوفة سنة ٥٧هـ/ ٦٧٧م، ولكن يذكر ابن خياط أن عبدالرحمن بن عثمان الثقفي هو عم عبدالرحمن بن أم الحكم الثقفي.

* من أصحاب الضحاك بن قيس، وكان موالياً لمعاوية، وممن دعا إلى بيعة ابن الزبير قتل بمرج راهط.

* لم نجد له ترجمة.

* كان من سبي فزارة، ووهبه النبي لفاطمة ابنته فأعتقته، ناصر معاوية في صفين، وبعثه يزيد على جند دمشق يوم الحرة، وبايع مروان بالجابية.

* سيد بني تميم في البصرة، من دهاة العرب وقادتهم في صدر الإسلام، توفي سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م.

لإمامكم، وكاتب نبيكم وصهره، يسلم لكم العاجل، وتربحوا من الآجل « (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٨؛ البلاذري، ١٩٩٦: ٣٢٤؛ ابن كثير، ٢٠٠٦: ٧٩).

فقام الأحنف بن قيس مرة أخرى وخطب قائلًا: « يا أمير المؤمنين، إنا قد فررنا عنك قريشا، فوجدناك أكرمها زندًا، وأشدها عقدًا، وأوفاها عهدًا، وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة، ولم تظهر عليها قعصا، ولكنك أعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت، ليكون له الأمر من بعدك، فإن تف فأنت أهل الوفاء، وإن تغدر تعلم، والله إن وراء الحسن خيولًا جيادًا، وأذرعاً شدادًا، وسيوفًا حدادًا، وإن تدن له شبرًا من غدر، تجد وراءه باعًا من نصر، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك، ولا أبغضوا عليًا وحسنًا منذ أحبوهما، وما نزل عليهم في ذلك غير من السماء، وإن السيوف التي شهروها عليك مع علي في صفين لعلى عواتقهم، والقلوب التي أبغضوك بها لبين جوانحهم، وأيم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من علي» (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٨).

وبعد ذلك قام معاوية خطيبًا، فقال: « أيها الناس، إن لإبليس من الناس إخوانًا وخلانًا بهم يستعد، وإياهم يستعين، وعلى ألسنتهم ينطق، إن رجوا طمعًا أوجفوا، وإن استغني عنهم أرجفوا، ثم يلحقون الفتن بالفجور، ويشققون لها حطب النفاق، عيابون مرتابون، إن ولوا عروة أمر حنقوا، وإن دعوا إلى غي أسرفوا، وليسوا أولئك بمنتهين ولا بمقلعين ولا متعظين، حتى تصيبهم صواعق خزي وبيل، وتحل بهم قوارع أمر جليل، تجتث أصولهم كاجتثاث أصول الفقع، فأولى لأولئك ثم أولى، فإنا قد قدمنا وأنذرنا إن أغنى التقديم شيئًا أو نفع النذير» (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٩).

ثم دعا معاوية الضحاك فولاه الكوفة، ودعا عبدالرحمن الثقفي فولاه الجزيرة الفراتية، ثم قام الأحنف بن قيس فقال: « يا أمير المؤمنين، أنت أعلمنا بليله ونهاره (يقصد يزيد)، وبسره وعلانيته، فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه، وإن كنت تعلم أنه شر لك، فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين، وأنت تعلم من هما، وإلى ما هما، وإنما علينا أن نقول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٣٩؛ ابن الأثير، د. ت: ٥٠٨؛ ابن عبد ربه، ٢٠٠٥: ١١٢).

ويشير العقيلي، إلى أهمية هذا الاجتماع الذي عقده معاوية من خلال تثمين أقوال المتحدثين فيه، قائلًا: « إن المتمعن في أقوال المتحدثين في ذلك الاجتماع، وهي أقوال صدرت عن أناس عركتهم الحياة، وعلمتهم التجارب، سوف يلمس أن كل واحد منهم كان يبغي النفع للصالح العام لأفراد الأمة الإسلامية « (العقيلي، ١٩٨٥: ٤٠٥).

وكان ممن وافق معاوية أيضًا علــى قراره هذا في الاجتماع عمرو بن سعيد بن العاص والمعروف بـ الأشدق * (البلاذري، ١٩٩٦: ١٦٥؛ الطبري، ٢٠٠٣: ٥١٠؛ ابن كثير، ٢٠٠٦: ٢٩٨؛ الزركلي، ١٩٨٦: ٧٨) ، ويزيد بن المقنع العذري* الذي تكلم في الاجتماع وأنهى كلامه بقوله: " أمير المؤمنين هذا "، وأشار إلى معاوية، " وإذا مات فهذا "، وأشار إلى يزيد، " ومن أبى فهذا "، وأشار إلى السيف. ثم أنشد (القالي، ٢٠٠٦: ١٥٩):

معاوية الخليفة لا تمـــارى	فإن تهلك فســـائسنا يزيد
فمن غلب عليه الشقاء جهلًا	تحكم فـي مفارقـــه الحديد

ومما سبق يتبين أن أهل الشام وافقوا معاوية على قرار البيعة، وذلك للأسباب التالية:

- لم تكن قضية توريث الحكم جديدة على أهل الشام؛ نظرًا للاتصال الجغرافي والتاريخي بينهم وبين الدولة البيزنطية.
- حب أهل الشام لمعاوية ولبني أمية وتعصبهم لهم دون غيرهم.
- رغبة الشاميين في بقاء ثقل الدولة الإسلامية ومركزها في بلادهم وما يتبع ذلك من موارد مالية ومصالح اقتصادية من العطاء والرزق، وذلك لأن الخلافة لو آلت من بعد معاوية للحسن أو لأحد من أبناء الصحابة فإن العاصمة لن تكون دمشق بالطبع، بل ستنتقل إلى الحجاز أو العراق.
- طول فترة حكم معاوية لبلاد الشام، إذ إنه وليها لعمر بن الخطاب منذ سنة ١٨هـ/ ٦٣٨م بعد أن توفي أخوه يزيد بن أبي سفيان متأثرًا بطاعون عمواس، مع العلم أن معاوية كان قبل ذلك واليًا على الأردن (البلاذري، ١٩٩٦: ٢١؛ الذهبي، ١٩٨٥: ١٦؛ Encyclopaedia of Islam (1), 1927, 617).

أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم ـ واليه على المدينة ـ كتابًا فيما يلي نصه: " إني قد كبرت سني، ودق عظمي، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدي، وكرهت أن أقطع أمرًا دون مشورة من عندك، فاعرض ذلك عليهم، وأعلمني بالذي يردون عليك " (ابن الأثير، د. ت: ٥٠٥؛ حمادة، د. ت، ١٣١).

عرض مروان قرار معاوية على الناس، فقالوا: أصاب ووُفق، وقد

* أحد رجال بني أمية، ولي مكة والمدينة لمعاوية وابنه يزيد، ثار على عبدالملك بن مروان فقتل سنة 70هـ/ 690م.

* لم نجد له ترجمة، ولكن يبدو أنه كان أحد رجال القبائل الموالية لبني أمية.

أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو. فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأعاد إليه الجواب يذكر يزيد، فقام مروان وخطب: " إن أمير المؤمنين قد أختار لكم فلم يألُ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده. فقام عبدالرحمن بن أبي بكر فقال: كذبت والله يا مروان، وكذب معاوية! ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل " (ابن الأثير، د. ت: ٥٠٥).

كتب مروان إلى معاوية: " إن قومك أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك ". فعزله معاوية، وولى بدلاً منه سعيد بن العاص. ثم كتب معاوية إلى سعيد بن العاص وهو على المدينة يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى بيعة يزيد، فأظهر سعيد لهم الغلظة والشدة، فأسرع الناس إليه عدا القليل ومنهم بنو هاشم، فكتب سعيد يخبر معاوية بذلك (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٤٢).

ومما سبق يبدو أن مروان بن الحكم عارض الفكرة بدايةً، وأغلب الظن أنه عارض بسبب أنه كان أكبر بني أمية سنًا في ذلك الوقت، ولا يمكن مقارنته بيزيد الذي يصغره بأكثر من عقدين من الزمان*، أو لأن مروان كان يطمع بالخلافة من بعد معاوية، ولكنه بعد ذلك رضي بالأمر (خماش، ٢٠٠١: ٢٢).

وبعد أن حصل معاوية على بيعة أهل الشام وأهل العراق من خلال لقائه بوفود القبائل، ورسله إلى عماله، قرر الاتجاه إلى الحجاز، وهو الإقليم المعارض لسلطة بني أمية، ويذكر أنه كان برفقة معاوية ألف فارس، ولما دنا من المدينة لقي الحسين بن علي - رضي الله عنه - وكان أول من لقيه من الناس، وقد ذكر ابن الأثير ذلك اللقاء في رواية دون سند يشير فيها إلى شدة معاوية وغلظته حين قابل الحسين على مشارف المدينة، ومما جاء في الرواية : (فلما نظر إليه قال معاوية: لا مرحباً ولا أهلاً بدنة (الناقة أو البقرة السمينة) يترقرق (يتلألأ دون أن يسيل) دمها والله مهريقه (مسيله)! قال الحسين: مهلاً، فإني والله لست أهلاً لهذه المقالة! قال: بلى ولشر منها) (ابن الأثير، د.ت: ٥٠٩)

ثم لقيه كل من ابن الزبير، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وابن عمر، وقابلهم معاوية بنفس الصورة التي لقى بها الحسين، فأقبلوا معه لا يلتفت إليهم حتى دخل المدينة، فجاءوا عند بابه ولم يأذن لهم، ولم يروا منه ما يحبون، فخرجوا إلى مكة وأقاموا بها (ابن الأثير، د. ت: ٥٠٩).

ونرى أن رواية ابن الأثير السابقة ضعيفة، لأنها ليس لها وجود عند الطبري ولا عند غيره، بالإضافة إلى أنه لا يعقل أن يقابل معاوية الحسين بتلك الصورة خصوصًا أنه في حاجة إلى تأييد الحسين في قرار البيعة ليزيد بولاية العهد.

وقبل خروج الحسين ومن معه خطب معاوية في أهل المدينة، وحضر الحسين وأصحابه الخطبة، ويورد ابن قتيبة النص، كما يلي: " يا أهل المدينة، لقد هممت ببيعة يزيد، وما تركت قرية ولا مدرة إلا بعثت إليها في بيعته، فبايع الناس جميعًا وسلموا، وأخرت المدينة بيعته... وكان الذين أبوا البيعة منهم من كان أجدر أن يصله، ووالله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له، فقام الحسين فقال: والله لقد تركت من هو خير منه أبًا وأمًا ونفسًا، فقال معاوية: كأنك تريد نفسك؟ فقال الحسين: نعم، أصلحك الله. فقال معاوية: إذن أخبرك، أما قولك خير منه أمًا، فلعمري أمك خير من أمه، ولو لم تكن إلا أنها امرأة من قريش، لكان لنساء قريش فضلهن، فكيف وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم فاطمة في دينها وسابقتها، فأمك لعمر الله خير من أمه، وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله، فقضى لأبيه على أبيك. فقال الحسين: حسبك جهلك، آثرت العاجل على الآجل. فقال معاوية: وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفسًا، فيزيد والله خير لأمة محمد منك. فقال الحسين: هذا هو الإفك والزور، يزيد شارب الخمر، ومشتري اللهو خير مني؟ فقال معاوية: مهلًا عن شتم ابن عمك، فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك. ثم التفت معاوية إلى الناس وقال: أيها الناس، قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض، ولم يستخلف أحدًا. فرأى المسلمون أن يُستخلف أبابكر، وكانت بيعته بيعة هدى، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر، اختارهم من المسلمين. فصنع أبوبكر ما لم يصنعه رسول الله، وصنع عمر ما لم يصنعه أبوبكر، كل ذلك يصنعونه نظرًا للمسلمين، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف، ونظرًا لهم بعين الإنصاف. فرد عليه ابن الزبير: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض فترك الناس إلى كتاب الله، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبابكر، ثم رأى أن يستخلف عمر، وهو أقصى قريش منه نسبًا، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين، وفي المسلمين ابنه عبدالله، وهو خير من ابنك، فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله، فيختارون لأنفسهم، وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبوبكر خير من يعلم، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر، تختار رهطًا من المسلمين، وتزويها عن ابنك، فافعل " (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ١٥٢ـ ١٥٣).

* فإن مروان ولد سنة ٢هـ/ ٦٢٣م، ويزيد ولد سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م.

ثم أنذر معاوية من يخالفه ويشق عصا المسلمين، وتمثل بأبيات منها (ابن الأثير، د. ت: ٥٠٩):

قد كنت حذرتك آل المصطلق وقلت يا عمرو أطِعني وانطلق
إنك إن كلفتني ما لــــم أطق ساءك ما سرك مني من خلق

والملحوظ من حوار الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير مع معاوية بن أبي سفيان، أن معاوية ظهر بمظهر المتزن العاقل الحليم، وبالمقابل ظهر الحسين بن علي بمظهر المندفع المتحمس الذي يستثار غضبه بسرعة، وهذا من شأنه أن يخدم معاوية خصوصًا في هذا اللقاء التاريخي بين معاوية بن أبي سفيان وأهل المدينة.

وبعد أن ألقى معاوية خطبته اتجه إلى بيت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها، وشكا إليها أمر الحسين وأصحابه، فنصحته أن يرفق بهم " فارفق بهم فإنهم يصيرون إلى ما تحب إن شاء الله ". ثم خرج معاوية إلى مكة (ابن الأثير، د. ت: ٥٠٩).

وحين وصل معاوية بن أبي سفيان إلى مكة طاف بالبيت، ثم دخل منزله، ويروي الطبري (الطبري، ٢٠٠٣: ٢٤٨) أن معاوية قرأ على الناس كتاب البيعة، فاستجاب له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر وهم:

أ ـ عبدالله بن العباس: يذكر الطبري أن عبدالله بن عباس كان أحد الخمسة الذين رفضوا البيعة ليزيد، ويبدو أن ابن عباس اعتزل الفتنة فيما بعد واشتغل بالعلم والتفسير ورواية الحديث الشريف (الطبري، ٢٠٠٣: ٢٤٨ ؛ ماجد، ١٩٩٨: ٧٤).

ب ـ الحسين بن علي: أرسل إليه معاوية للحضور فلما حضر، قال له: " يا ابن أخي، قد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر أنت تقودهم، يا ابن أخي، فما إربك إلى الخلاف؟ قال: أنا أقودهم؟! قال: نعم، أنت تقودهم. قال: فأرسل إليهم، فإن بايعوا كنت رجلًا منهم، وإلا لم تكن عجلت علي بأمر، قال: وتفعل؟ قال: نعم..." (الطبري، ٢٠٠٣: ٢٤٨).

ج ـ عبدالله بن الزبير: أرسل معاوية إليه فلما حضر، قال له: " يا ابن الزبير إنما أنت ثعلب رواغ كلما خرج من جحر دخل آخر، وإنك عمدت إلى هذين الرجلين، فنفخت في مناخرهما وحملتهما على غير رأيهما " (ابن خياط، ١٩٩٥: ١٣١). فتكلم ابن الزبير، قائلًا: " إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها، وهلم ابنك فلنبايعه، أرأيت إذا بايعنا ابنك معك لأيكما نسمع؟! لأيكما نطيع؟! لا نجمع البيعة لكما والله أبدًا " (ابن خياط، ١٩٩٥: ١٣١).

د ـ عبدالله بن عمر: حين جاء قال له معاوية: " أما بعد يا ابن عمر، فإنك قد كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء ليس عليك أمير، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وأن تسعى في فساد ذات بينهم" (ابن خياط، ١٩٩٥: ١٣١). فتكلم ابن عمر، قائلًا: "...قد كانت قبلك خلفاءهم أبناء* ليس ابنك بخير من أبنائهم، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت أنت في ابنك، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار، وإنك تحذرني أن أشق عصا المسلمين، وأن أسعى في فساد ذات بينهم، ولم أكن لأفعل، إنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم " (ابن خياط، ١٩٩٥: ١٣١).

هـ ـ عبدالرحمن بن أبي بكر: أرسل إليه معاوية، وحين جاءه أخذ في الكلام، فقطع عليه كلامه، وقال: " إنك والله لودِدت أنا وكلناك في أمر ابنك إلى الله، وإنا والله لا نفعل، والله لتُردن هذا الأمر شورى في المسلمين، أو لنعيدنها عليك جذعةً (من البداية)". ثم وثب ومضى (السيوطي، ٢٠٠٣: ١٩٤).

ولم يجد معاوية وسيلة سوى إشاعة أن هؤلاء النفر قد بايعوا ليزيد، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: " إنا وجدنا أحاديث الناس ذوات عوار، زعموا أن ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبي بكر الصديق، لم يبايعوا يزيد! قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له. فقال أهل الشام: لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رؤوس الناس وإلا ضربنا أعناقهم، فقال معاوية: سبحان الله، ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء، لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم، ثم نزل. فقال الناس: بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر، وهم يقولون: لا والله ما بايعنا. والناس يقولون: بلى لقد بايعتم. وعند ذلك ارتحل معاوية إلى الشام " (ابن خياط، ١٩٩٥: ١٣٢).

ومن هنا يمكن القول إن معاوية استطاع أن يجعل الناس يبايعون ليزيد بولاية العهد من بعده بالحيلة، واستخدام أسلوبي الإقناع والإرهاب في آن واحد، وهنا تتضح بصورة جلية شخصية معاوية الداهية المحنك، أو ما يعرف بـ شعرة معاوية، التي استطاع باستخدامه لها تطويع أهل الحجاز والعراق حتى انقادوا له، ووافقوه على ما لم تتقبله عقولهم ولا تألفه نفوسهم قبل وصول معاوية للحكم.

ويرى ابن خلدون، أن الذي دعا معاوية إلى إيثار يزيد دون سواه بولاية العهد هو مراعاة المصلحة العامة " في اجتماع الناس عليه، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذٍ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذٍ، لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم..." (ابن خلدون،

* كذا في الأصل، وربما هي (خلفاء لهم أبناء).

٢٠٠٤: ٢٦٧).

ومما سبق نجد أن ابن خلدون يرى أن بني أمية لا يرضون سواهم، وهذا طبيعي لأن معاوية وغيره من شيوخ بني أمية كمروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، ما كانوا ليسلموا الخلافة، وهي أعلى منصب دنيوي، لغيرهم من قريش أو غيرها من العرب بعد أن صارعوا لفترة من الزمان من أجل الوصول إليه، بل بالطبع سيظلون متشبثين بها يتداولوها بينهم حتى يأذن الله بهلاك دولتهم.

ويصور الشاعر عبدالله بن همام السلولي* المذهب الذي ابتدعه معاوية تصويرًا شنيعًا، فيقول (الجبيلي، ١٩٩٨: ٧٦):

فــــإن تأتوا برملة أو بهندٍ	نبايعــها أميرة مؤمنينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى	نعد ثلاثـــة متناسقينا
أيا لهفًا لـــو أن لنا رجــالًا	ولكنا نعـــود كما عنينا
إذًا لضُربتم حتـــى تعـودوا	بمكة تلعقون بها السخينا
خُشينا الغيظ حتى لـو شربنا	دماء بني أمية مــا روينا

ويبدو أن معاوية قضى السنوات الأخيرة من عمره في التمهيد من أجل العهد ليزيد، وفي سنة ٦٠هـ/ ٦٨١م - وهو العام الذي توفي فيه معاوية - حضر إلى الشام وفد من أهل العراق مع عبيدالله بن زياد، فأخذ منهم معاوية البيعة لابنه، وفي العام نفسه وقبل وفاته كتب وصيته إلى يزيد (الطبري، ٢٠٠٣: ٢٦٠).

ويورد الطبري، وصية معاوية ليزيد في روايتين:

أ - رواية أبي مخنف:

يذكر أن معاوية لما مرض مرضه الأخير دعا يزيد، فقال له* : " يا بني، إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطّأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن أبي بكر؛ فأما عبدالله بن عمر فرجل وقذته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحمًا ماسة وحقًا عظيمًا؛ وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم، ليس له همة إلا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربًا إربًا " (الطبري، ٢٠٠٣: ٢٦٠).

ب - رواية عوانة بن الحكم:

يختلف عوانة في روايته عن أبي مخنف، في أن الأول ذكر أن يزيد كان غائبًا حين حضرت معاوية الوفاة، وأن معاوية أملى وصيته على الضحاك بن قيس الفهري وكان صاحب شرطته، ومسلم بن عقبة المري وكان على حرسه * فقال: " بلغا يزيد وصيتي، انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملًا فافعل، فإن عزل عامل أحب إلي من أن تشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك (موضع سرك)، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم؛ وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير؛ فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين، فليس ملتمسًا شيئًا قبلك، وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحمًا ماسة، وحقًا عظيمًا، وقرابةً من محمد صلى الله عليه وسلم، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو أني (كنت) صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خب ضب، فإذا شخص لك فالبد له، إلا أن يلتمس منك صلحًا، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت " (الطبري، ٢٠٠٩: ٢٦٠).

وحين النظر إلى الرواية التي أوردها أبو حنيفة الدينوري عن وصية معاوية ليزيد، نجدها كالآتي: " مرض معاوية مرضه الذي مات فيه، فأرسل إلى ابنه يزيد، وكان غائبًا عن مدينة دمشق، فلما أبطأ عليه دعا الضحاك بن قيس الفهري، وكان على شرطته، ومسلم بن عقبة، وكان على حرسه، فقال لهما: أبلغا يزيد وصيتي، وأعلماه أني آمره في أهل الحجاز أن يكرم من قدم عليه منهم، ويتعهد من غاب عنه من أشرافهم، فإنهم أصله، وإني آمره في أهل العراق أن يرفق بهم ويداريهم ويتجاوز عن زلاتهم، وإني آمره في أهل الشام أن يجعلهم عينيه (عيبته) وبطانته، وألا يطيل حبسهم في غير شامهم، لئلا يجْروا على أخلاق غيرهم. وأعلماه أني لست أخاف عليه إلا أربعة رجال: الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن الزبير. فأما الحسين بن علي فأحسب أهل العراق غير تاركيه حتى يخرجوه، فإن فعل، فظفرت به، فاصفح

---

* شاعر مشهور من شعراء أهل الكوفة، يقال له العطار وذلك لحسن شعره، وكان وجيهًا عند آل أبي سفيان.

* يورد البلاذري نصًا شبيهًا بهذا النص من وصية معاوية، ولكن برواية عوانة بن الحكم عن الهيثم بن عدي.

* يورد البلاذري نص الوصية برواية عوانة بن الحكم عن المدائني ولكنه لا يذكر في هذا الموضع أن يزيد كان غائباً، على الرغم من أنه يذكر في موضع آخر أن يزيد كان غائباً حين توفي أبيه.

عنه، وأما عبدالله بن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة، وليس بطالب للخلافة... وأما عبدالرحمن بن أبي بكر فإنه ليس له في نفسه من النباهة والذكر عند الناس ما يمكنه طلبها ويحاول التماسها إلا أن تأتيه عفوًا، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك روغان الثعلب، فإن أمكنته فرصة وثب فذاك عبدالله بن الزبير، فإن فعل وظفرت به، فقطعه إربًا إربًا إلا أن يلتمس منك صلحًا، فإن فعل فاقبل منه، واحقن دماء قومك بجهدك، وكف عاديتهم بنوالك، وتغمدهم بحلمك " (الدينوري، د. ت: ٢٢٦).

وأورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين نص الوصية برواية الهيثم بن عدي تحت عنوان (خطبة معاوية)، وهي كما يلي: " لما حضرت معاوية الوفاة ويزيد غائب دعا معاوية مسلم بن عقبة المري، والضحاك بن قيس الفهري، فقال: أبلغا عني يزيد وقولا له: انظر إلى أهل الحجاز فهم أصلك وعِترتُك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعهده. وانظر إلى أهل العراق، فإن سألوك عزل عامل لهم في كل يوم فاعزله عنهم، فإن عزل عامل أهون عليك من سل مائة ألف سيف ثم لا تدري على ما أنت عليه منهم. ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشعار (الثوب الداخلي) دون الدثار (الثياب الخارجية) فإن رابك من عدوك ريب فارمهم بهم، فإن أظفرك الله بهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ولا يقيموا في غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم. لست أخاف عليك غير عبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وحسين بن علي، فأما عبدالله بن عمر فرجل قد وقذه الورع، وأما الحسين فإني أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه، وأما ابن الزبير فإنه خب ضب " (الجاحظ، ٢٠٠٦: ٢٩٦).

ونرجح أن تكون رواية الطبري عن عوانة بن الحكم هي أقرب الروايات إلى الصحة؛ وذلك لأنه ذكر أن يزيد كان غائبًا حين حضرت أباه الوفاة، وقد اتفقت المصادر على ذلك، وكذلك لأنها تتفق مع كل الروايات الأخرى في المعنى مع اختلاف بسيط فقط في السياق.

ومن خلال ذلك نلاحظ ما يلي:

١- أن معاوية يتوقع أن تقوم ثورات ضد يزيد أو معارضات لخلافته من قبل الرجال الذين ذكرهم في وصيته وهم الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن أبي بكر.

٢- أن نص الوصية الذي رواه الطبري عن عوانة بن الحكم، وكذلك نص الوصية لدى الجاحظ، لم يذكر فيه عبدالرحمن بن أبي بكر، مما يدلنا على أن عبدالرحمن بن أبي بكر لم يكن يشكل خطرًا على يزيد من وجهة نظر معاوية كبقية المذكورين.

٣- لا نجد اسم عبدالله بن عباس ضمن أسماء هؤلاء الأشخاص الذين يذكرهم معاوية ليزيد من أجل الحذر منهم، وكيفية التعامل معهم. وربما لأن ابن عباس كان قد اعتزل هذه الأمور واشتغل بطلب العلم والتفسير ورواية الحديث.

٤- أن معاوية يطمئن ابنه على الموقف المتوقع من عبدالله بن عمر وذلك لأنه رجل قد هذبته العبادة، وسيطرت على عقله وكيانه وبالتالي فإنه لن يشق عصا الأمة، ويشتت شمل المسلمين.

٥- أما الحسين بن علي فرغم أنه من أكثر المعارضين صيتًا، وقدرة على الاستحواذ على شغف المسلمين وعطفهم، بيد أن خطره زائل لا محالة، وذلك لأن معاوية يعرف أن شيعته سيخذلونه كما خذلوا أباه وأخاه من قبل.

٦- يظهر أن أكثر من يتخوف منه معاوية هو عبدالله بن الزبير، فهو رجل ذو مكانة، أكسبته الحياة خبرات عميقة، ومعاوية يعلم أن ابن الزبير سيعتمد على أهل الحجاز وبالتالي فإن أنصاره أوفى من أنصار الحسين ولذلك فهو يخاف على يزيد منه، ويدعوه إلى الانقضاض عليه إن ظفر به.

٧- رغم أن معاوية قد حذر يزيد من تلك الشخصيات إلا أنه جعل مجالًا للصلح؛ فهو ينصحه بالعفو عن كل من يطلب الصلح، وكذلك ينصحه بحقن دماء قومه ما استطاع.

٨- يحاول معاوية قدر الإمكان أن ينقل ليزيد خبراته من خلال وصف أهل الأمصار، فيوصيه بأهل الحجاز خيرًا، والامتثال لمطالب أهل العراق، ويوصيه أيضًا بأهل الشام، وهذا طبيعي فأهل الشام هم عماد الدولة الأموية، وخصوصًا القبائل اليمانية. ويلفت معاوية انتباه يزيد إلى بعض النواحي التي يجب أن لا يغفلها، مثل تجمير البعوث، وهو ترك الجند على خط النار لمدة تزيد عن ثلاثة أشهر أو أربعة ، فهو يحذره من الوقوع في هذا الخطأ؛ لأن الجند يمتعضون من هذا وقد يؤدي بعد ذلك إلى ما لا تحمد عقباه.

وهناك الكثير ممن يعترضون على ولاية العهد ليزيد، بحجة أن معاوية لم تكن الشرعية إلى جانبه عندما تولى، وإن كان معاوية قد حاول بكل ما استطاع من قوة أن يبرهن على وجود الشرعية إلى جانبه وذلك من خلال المطالبة بدم عثمان، واعتبار نفسه وريثه في الأخذ بحقه، واختلاق أحاديث على لسان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أن الحكم لمعاوية، وتجنيد الوعاظ لتمجيد معاوية في مساجد الشام. ولكن المعارضين يرون أن شرعية معاوية ناقصة لسببين هما (العشي، ٢٠٠٩: ٢٤٧):

- عصيانه لعلي ومحاربته له، باسم مبدأ إسلامي هو الأخذ بثأر عثمان المقتول، ويشير ابن قتيبة أن عثمان قـد فوض له ذلك عندما اشتد عليه أمـر المعـارضة (ابن قتيبة، ٢٠٠٩: ٣٥).

- تاريخ الأسرة الأموية سواء قبل الهجرة أم بعدها حتى عام الفتح ٨هـ/ ٦٢٩م، فمعاوية كان ينعت بأنه الطليق ابن الطليق* ومروان بن الحكم كان ينعت بأنه ابن الطريد * الملعون وهو في صلب والده الحكم، الذي لعنه الرسول صلى الله عليه وسلم (البلاذري، ١٩٩٦: ٢٩٩ ؛ بطاينه، ١٩٩٩: ١٩).

هنا نتساءل: ما الهدف الذي دفع معاوية لاستخلاف يزيد من بعده؟!

وهنا يمكن القول إن معاوية بن أبي سفيان أراد أن يضمن بقاء الحكم في أسرته من خلال العهد ليزيد ابنه من بعده، وبذلك تظل الخلافة وراثية في أسرته من بعد يزيد، ويؤيد يوسف العش هذا الرأي حيث يقول : " إن ما ينطبق على الأفراد من حب البقاء يسري على الدول، وهكذا كان على الحكم الأموي أن يسعى إلى البقاء، ويعمل له، ويضع كل قوته في سبيله " (العش، ١٩٨٥: ٣٣٩).

وبما أن معاوية يريدها وراثية في أسرته من بني أمية، فإنه لا يرى أحدًا أحق بالخلافة من بعده أكثر من يزيد رغم وجود الكثيرين ممن هم جديرون بالخلافة أكثر من يزيد، هذا فضلًا عن أنه أراد أن يجنب يزيد الوقوع فيما وقع فيه هو من صراعات ومخاطر من أجل الوصول للسلطة.

ولكي ننصف معاوية حين النظر لقضية استخلاف يزيد من جانب محايد، فإنه يمكن القول إن معاوية من خلال نظره الثاقب، ودهائه أراد - ولو ظاهرياً - من تولية العهد ليزيد من بعده أن يمنع وقوع فتنة أخرى بعد وفاته، وبتعيينه يزيد يحسم الأمر، ويوحد كلمة المسلمين، ويلم شعثهم من بعده.

ويؤيد ذوقان ذلك بما أشار إلى أن معاوية " قد سعى إلى إيجاد نظام جديد يضمن من خلاله عملية نقل سلمية للسلطة، ويستطيع من خلالها أن يحافظ على استقرار نظام الحكم من ناحية وعلى وحدة الأمة من ناحية أخرى" (ذوقان، ٢٠٠٥: ٥٢).

ونرى أن فكرة تعيين معاوية لشخص ولي عهده صائبة؛ وذلك لأن التعيين سيحسم النزاع ويمنع وقوع الفتنة بعد موت معاوية، ولكننا نخالفه في اختيار يزيد خاصة ليكون ولي للعهد؛ نظرًا لوجود أشخاص سواء من قريش أو من بني هاشم أو بني أمية خاصة هم أجدر بتولي أمور المسلمين أكثر من يزيد بن معاوية، ولذلك يمكن القول إن الاعتراض لم يكن على التعيين في نفسه بقدر ما كان اعتراضا على شخص يزيد، ولو تركها معاوية شورى للمسلمين ليختاروا وليًا للعهد لما حصلت تلك الفتن التي شهدتها الدولة الإسلامية عقب وفاة معاوية. ويرى البعض أن معاوية تسرع في اتخاذ ذلك القرار، أو اتخذ القرار قبل أوانه في ظروف سياسية مرتبكة (البدراني والجوادي، ٢٠١٠: ١١٤).

ويقول ابن العربي في ذلك: " إن معاوية ترك الأفضل في أن يجعلها شورى، ولا يخص بها أحدًا من قرابته، فكيف ولداً؟! ثم يقول: فعدل إلى ولاية ابنه، وعقد له البيعة، وبايعه الناس، وتخلف عنها من تخلف، فانعقدت البيعة شرعاً..." (ابن العربي، ١٩٩٢: ٣٣٣).

ولذلك يمكن وصف معاوية في هذا الموضع بأنه شخصية سياسية من الطراز الأول بامتياز وذلك لأنه مارس السياسة دون الالتزام بالمُثل والأخلاقيات، واعتمد الخداع والمراوغة والحيلة من أجل إبقاء السلطة في أسرته مهما كانت العواقب.

المصادر:

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، ٢٠٠٣، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ، د. ت، الكامل في التاريخ، بيت الأفكار الدولية، عَمان.

الأصبهاني، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/ ٩٧٦م)، د.ت، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، ١٩٩٦، جمل من أنساب الأشراف، دار الفكر، بيروت.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، ١٩٧٦، سؤال في يزيد بن معاوية، دار الكتاب الجديد، بيروت.

الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، ٢٠٠٦، البيان والتبيين، المكتبة العصرية، بيروت.

الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، ١٩٨٧، رسائل الجاحظ: الرسائل الكلامية، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت.

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر(ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، ٢٠٠٤، مقدمة ابن خلدون، دار الفجر للتراث، القاهرة.

ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، ١٩٨٨، وفيات الأعيان وأنباء أبناء هذا الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن خياط، خليفة بن خياط بن أبي هبيرة (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)،

* ذلك لأن أبي سفيان أسلم يوم الفتح وكان ضمن الذين قال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

* كان الرسول قد طرد الحكم بن أبي العاص من المدينة إلى الطائف، ولعنه.

١٩٩٥، تاريخ خليفة بن خياط، دار الكتب العلمية، بيروت.
الدينوري، أبي حنيفة أحمد بن داؤود (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م)، د.ت، الأخبار الطوال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.
الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٦م)، ١٩٨٩، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: عهد معاوية بن أبي سفيان، دار الكتاب العربي، بيروت.
الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٦م)، ، ١٩٨٥، العبر في خبر من غبر، دار الكتب العلمية، بيروت.
ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/٨٨٤م)، ١٩٩٧، الطبقات الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت.
السيوطي، الحافظ جلال الدين (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، ٢٠٠٣، تاريخ الخلفاء، دار الجيل، بيروت.
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، ٢٠٠٣، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت.
ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)، ٢٠٠٥، العقد الفريد، المكتبة العصرية، بيروت.
ابن العربي، القاضي أبي بكر (ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م)، ١٩٩٢، العواصم من القواصم، دار الثقافة، الدوحة.
ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، ٢٠٠١، تاريخ دمشق الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
القالي، أبي علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م)، ٢٠٠٦، كتاب الأمالي، المكتبة العصرية، لبنان.
ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٨م)، ٢٠٠٩، الإمامة والسياسة. (منسوب إليه)، دار الكتب العلمية، بيروت.
القلقشندي، أحمد بن عبدالله (ت ٨٢١هـ/١٤١٧م)، ١٩٦٤، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.
ابن كثير، أبو الفدا الحافظ الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، ٢٠٠٦، البداية والنهاية، دار الحديث، القاهرة.
المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، ١٩٨٨، مروج الذهب ومعادن الجوهر، منشورات وزارة التراث، دمشق.

المراجع:

بطاينه، محمد، ١٩٩٩، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان.
بيضون، إبراهيم، ١٩٧٩، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية، بيروت.
جاسم، جاسم، ٢٠٠٥، الوفادات على الخلفاء الأمويين، دار الكتاب الثقافي، الأردن.
الجبيلي، سجيع، ١٩٩٨، البيت السفياني في الشعر الأموي، المكتبة العصرية، بيروت.
حمادة، محمد، د. ت، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، مؤسسة الرسالة، بدون مكان نشر.
خريسات، محمد، ٢٠٠٥، الدولة الأموية من النهوض إلى السقوط ٤١ـ ١٣٢هـ، مؤسسة حمادة، الأردن.
خفاجي، عبدالمنعم، ١٩٨٩، معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
خماش، نجدة، ٢٠٠١، خلافة بني أمية في الميزان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق.
الزركلي، خير الدين، ١٩٨٦، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت.
السيد، محمود، ٢٠٠٢، تاريخ الدولة الأموية، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة.
شاكر، محمود، ٢٠٠٠، العهد الأموي، المكتب الإسلامي، بيروت.
شعبان، فوزي، ٢٠٠٩، توريث الحكم في الأديان السماوية، دار الأحمدي للنشر والتوزيع، القاهرة.
الصلابي، محمد، ٢٠٠٦، الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار اليقين للنشر والتوزيع، مصر.
العش، يوسف، ١٩٨٥، الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان، دار الفكر، دمشق.
العشماوي، محمد، ١٩٩٢، الخلافة الإسلامية، سينا للنشر، القاهرة.
العشي، عمار، ٢٠٠٩، تاريخ بلاد الشام في القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري، دار الينابيع، دمشق.
فوزي، فاروق، ٢٠٠٩، الخلافة الأموية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عَمان.
ماجد، عبدالمنعم، ١٩٩٨، التاريخ السياسي للدولة العربية: عصر الخلفاء الأمويين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
نوار، صلاح الدين، ١٩٩٦، نظرية الخلافة أو الإمامة وتطورها السياسي والديني، منشأة المعارف، الإسكندرية.

المراجـــع الأجنبية:

Encyclopedia of Islam (1). Edited by: M. TH. HOUTSMA and others, Old edition, 1927, E. J .Brill, Leiden
Muir, William, 1984, The Caliphate. (N.E), Draft .Published LTD, London
The Encyclopedia of Islam: New edition. Edited by: C. E BOSWERTH and others, New edition , .1999, E. J. Brill, Leiden

الدوريات العلمية:

البدراني، جاسم علي و الجوادي، خيري، ٢٠١٠، التحول من مبدأ الشورى إلى سياسة ولاية العهد في العصر الأموي ٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل (العراق)، العدد الثاني، ١١٠- ١٢٥.

العقيلي، عمر، ١٩٨٥، مبايعة يزيد بن معاوية بولاية العهد، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود (السعودية)، العدد الثاني، ٣٠٩- ٤١١.

العقيلي، محمد، ١٩٩٣، مروان بن الحكم ينقذ الحكم الأموي، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق (دمشق)، العدد الخامس والأربعون، ١٢- ٣٢.

الملاح، هاشم، ١٩٧٦، أساليب تداول السلطة في الدولة العربية الإسلامية، مجلة آداب الرافدين (العراق)، العدد السابع، ١٥- ٣٣.

الرسائل العلمية:

ذوقان، وجيه، ٢٠٠٥، ولاية العهد في العصر الأموي (٤١هـ/ ٦٦١م - ١٣٢هـ/ ٧٥٠م). رسالة ماجستير في الآداب، جامعة النجاح الوطنية، نابلس (فلسطين).